وجوب انشاء دار للتاريخ الطبيعي

لغة الطبيعة وأثرها في الخلق الانساني

لاسماعيل مظهر

للطبيعة على الانسان سلطان غير محدود المدى ، ولا مقصور على ناحية خاصة من النواحي التي تتشعب فيها النفس الانسانية. يكفي لان تعتقد بهذا ان تذكر ان الانسان جزء من الارض، وأنهُ من صميم ثراها نشأ وترعرع ، ومن خيراتها عاش وتكاثر، ومن هوائها اتنفس ، ومن انهارها اغتذى ، ومن احجارها شيد ، ومن اشجارها تجدد ، وفي حزونها ووهادها وتلالها وجبالها ضرب كل مضرب وسار كل مسار ، ومن مشارفها غذى النفس، ومن مناظرها زود الخيال ، ومن حقائقها كون العقل. سلطان موروث بالطبع، لا مكتسب بالمران ، سلطان لا تبالغ اذا قلت أنهُ قطعة من الفطرة، وجزء من الجبلة ، تراءى للطفل بخياله منذ ان يفتح عينيه لاول مرة على نور هذه الدنيا ، ولا تفارق الانسان خيالاته الا عند ما يسدل عليه الغمضة الاخيرة ، ويخيم الموت على هيكله الترابي

على أن اهل العلم يحاولون اليوم أن يكسروا من حدة ذلك السلطان، سلطان الطبيعة على ابنها الثائر. يقولون بان الانسان استعوى على الطبيعة وأخضعها ، وأنه ذللها وألجمها ، ثم امتطاها. والحقيقة ان الانسان كلما ازداد استعواذاً على الطبيعة في ناحية زاد سلطانها عليه، واستبدادها به في نواحٍ اخرى . فاذا كان الانسان قد حبس تيار الكهرباء في سلك محصور في زجاجة مفرغة من الهواء فتوهج ، واذا كان قد امتطى الريح بآلات داخلية الاحتراق تدير محركات تضرب الهواء فترتفع فيه جسماً اثقل منه ، واذا كان قد اسر البخار فمشى به فوق الارض وعلى متن البحار سالكاً سبلاً ذللاً ، فان كل هذا وما يجري مجراه من المستكشفات التي استخدم فيها الانسان قوى الطبيعة ، انما تصبح للانسان اسراً جديداً بالتقليد والصفات المكتسبة والمادة التي تصبح على مر الاجيال فطرة. خذ لذلك مثلاً حركة الانتقال من مكان الى مكان . فان الانسان ظل قروناً ودهوراً ينتقل من مكان الى آخر مشياً على رجليه ، فلما الف الحيوان اتخذ منهُ متوناً يسافر عليها ، وظهوراً ينقل عليها متاعه وزاده . فانتقل بذلك من حال اجتماعية الى اخرى . ثم استخدم العربات ثم البخار ثم

الكهرباء . وكان في كل مدرج من هذه المدارج مدفوعاً الى التطبع بما نال من انتصار على الطبيعة والتعود على حالات جديدة، حتى اصبح اسيراً لهذه العادات بل عبداً لمخترعات عقله ، ومستنبطات ادراكه ، ومستحدثات تصوره ، فانتقل بتطور الحالات الاجتماعية من حال الى اخرى يستحيل عليه في الوقت الحاضر ان يرتد عنها أو يرجع بها الى الحالات الاولى التي درج عليها اسلافه الدهور الطوال. ومع هذا يقولون ان الانسان استعلى على الطبيعة ، ولكن الحقيقة انه استخدمها فأسرته ، وعبّدها فاذلته ، وذللها فصفّدته ، وخلقت منه خلقاً جديداً له عاداته التي لم يدرج عليها آباؤه الاولون ، ونزعت به منازع حديثة أحاطته بكثير من القيود الاجتماعية والحيوية ، كان أولئك محرّرون منها ، وعلى قدر ما كان جهلهم بالطبيعة واسرارها ، كانت حالاتهم الاجتماعية ، فكانوا ادنى من الفطرة واقرب لمطالب الحياة الحرة على معناها الاوسع

ثم خذ مثلاً آخر . فان الانقلاب الصناعي ، الذي مني به العالم الحديث ، اذ خرج الانتاج من يد الصانع الى دوي الآلات الميكانيكية قد احدث حالة يدعوها البعض تغلباً على الطبيعة واعتناقاً لها وتسوداً عليها . ذلك في حين أن الآلات افقدت الانسان مهارته الطبيعية ونزلت به من سماء الفن الى اسر الآلات الداوية ليل نهار، حتى لقد اصبح لها عبداً رقيقاً بل يخيل اليك كلما نظرت آلة يخدمها انسان ، أن الانسان قد انقلب آلة ميكانيكية وان ارادته فنت في ارادة الآلة التي يلاحظها ، فكأنه انقلب آلة وانقلبت الآلة انساناً

وكذلك الحال اذا تأملت في الامر من الناحية العقلية الصرفة . فلقد تحرر آباؤنا الاولون من كل شيء في الطبيعة الا حاجات الحياة الاولية من مأكل ومشرب ومأوى واختلاف النسل . ثم تصوّرُ بضعة ارواح تحرك ما حولهم من كائنات. فلم يكن لهم من غرض الا الحياة على صورتها الطبيعية الصرفة ، والا تأليل الظاهرات بخضوعها لارواح او لقوات ما وراء الطبيعة ، تحكم في كل ما يرى حقائق من مظاهر الوجود . لم ير الانسان الاول في الطبيعة وجهاً للشكوى الا اذا تعارضت اعاصيرها مع حاجات حياته. اما الآن فان يوماً غائماً او شديد الرياح ، كفيل بان يشغل مئات من مكاتب المحامين ، وبضع عشرات من القضاة في دور العدل . او كساد في السلع او نقص في الثمرات ، فانه زعيم بان ينتج ثورات طاحنة او ثورات مهلكة ، أو حروب تأكل الاخضر واليابس . أو زيادة في رطوبة الجو تؤثر في الاعصاب تأثيراً من شأنه ان يرسل الكثيرين الى محاكم الجنايات ، وبالقليل منهم الى حبال المشانق . كل هذا نتيجة لاتساع افق التصور واستنباط العقل لكثير من خفايا الطبيعة مع عدم التساوي بين الناس في المعرفة . فان الفارق بين الذي يدرك أن الجمرة

ثور ملايا البري

توران بريان

مشهدان آخران في المتحف الاميركي للتاريخ الطبيعي بنيويورك

مقتطف اكتوبر ١٩٣١ امام الصفحة ١٥٥

بها نجوم تبعد عن ارضنا ملايين السنين النورية ، وبين الفلاح الذي قال لي مرة في يوم صائف ان الشمس لا بد من أن تكون اقرب الى الارض في القاهرة منها في شمال الدلتا ، كبير ، اذا اعتبرت الحالات الاجتماعية التي تلابس الانسان في عصره الحاضر . فان الاول يدرك من المدنية انها نظام معروف تشابكت حلقاته الى درجة التعقيد ، في حين ان الثاني لا يدرك من هذا النظام الا انه نظام خلق مع الارض منذ دارت لاول مرة في فلكها المرسوم . والفوارق التي تباعد بين طبقات المجتمع تخلق حالات يصبح فيها الانسان عبداً للطبيعة ولنظام الاجتماع الخاضع في كل الحالات لعوامل طبيعية يخرج عن طوق الانسان ان يحتكم فيها أو يصرفها في الناحية التي يراها خيراً

لغز الطبيعة

لهذا ترى ان من اكبر الاصفاد التي قوّضت بها الطبيعة حرية الانسان ، تطور عقليته من ناحية ، وتطور نظمه الاجتماعية من ناحية اخرى . فان تطور عقليته نزع به الى حب الجمال ، وتطور نظمه الاجتماعية ارتفع فيها يدعوه الاستاذ ليبر الالماني بالجشع الاجتماعي ، تلك الصفة التي اخضعت كل الفضائل الانسانية لرذيلة واحدة ، هي رذيلة الاستجماع وحب الحطام حتى اصبح المجتمع الانساني اشبه بنظام بدائي تنازعت فيه الميول والشهوات ، بدل ان تتنازع فيه الحاجات الاولية . ولقد يخيل اليك أن معركة التناحر على البقاء التي تقوم بين الاحياء في الطبيعة عفواً وبحكم الضرورات الحيوية وعلى صورة مجازية صرفة ، قد دارت في عالم الاجتماع الانساني خاضعة لقوانين لا ضرورة لها في الحياة ولا حاجة للانسان بها في نظام اكثر من نظامنا الحاضر تمشياً مع المعقول ومع الضرورة . وما السبب في هذا الا ان سواد الناس يجهل لغة الطبيعة او ان الناس جرياً وراء شهواتهم قد وضعوا للطبيعة اسلوباً غير اسلوبها وبلاغة غير بلاغتها ، على قدر ما يرضي في انفسهم شهوة التهالك على الحطام واستجماع ما هم في غير حاجة اليه

لهذا ترى ان المجتمع الانساني اصبح شبيهاً بسجن حيكت شبكته من اوهام دنيوية ، خلقها ما يدعوه البعض تسوداً على الطبيعة وامراً لقوانينها . على ان تسوّد الانسان على الطبيعة هو أحد تلك الاوهام التي تحاك منها شبكة السجن الدنيوي . ولو فقه الناس ان للطبيعة لغة يمكن ان تخاطبهم بها في صمت ، او لو انهم عرفوا ان الطبيعة لا تؤسر حتى تأسر ، أنها لا تستعبد حتى تستعبد ، وأنها لا تخضع حتى تُخضع ، لامكن ان يكون للدعوة التي دعى اليها فلاسفة من اصحاب كبار العقول على مدى الايام الخالية ، بعض الاثر في صرف الناس الى

متجه آخر اقرب الى مطالب الحياة لتكون الحياة اقرب الى الحرية ، وادنى الى الجمال الذي تصبو اليه النفس الانسانية كلما ضرب الانسان في مجاهل الطبيعة

يخيَّل الى الذين لم يقرأوا لغة الطبيعة على حقيقتها ان هذا النظام الاجتماعي القائم من حولهم بما فيه من معاهد وانظمات وجيوش وحكومات وسلطات قضائية وتشريعية وادارية ، وبما فيه من منازع ومظاهر وقوانين ، قد خلق مع الطبيعة منذ ان برزت في عالم الوجود على ما هي عليه اليوم . اما لو فقهوا لغة الطبيعة اذن لعرفوا أن هذا النظام خاضع لما ندعوه « ارادة المجتمع الانساني » وتكوَّن من مجموع الظروف التي احاطت بالجماعات الانسانية منذ اول ظهورها على سطح هذا الكوكب في جماعات منظمة ، ومن مجموع النزائع والمشاعر والخيال ، ومن مجموع الانتصارات والهزائم والوان الحب والكراهية ، وفورات الانفعال والشهوة ، واطوار الحرب والسلام ، ومظاهر الاقدام والاحجام ، وعلى الجملة بمجمل ما شعرت به نفوس اولاد آدم وما احاط بهم من عوامل منذ أبعد العصور . وان هذا النظام الاجتماعي يحوي من مختلف الصور ما هو اثر من آثار ما احاط بالشعوب من فعل البيئة والنشأة والوراثة والامتزاج وطبيعة الاقليم وتخطيط الارض الى غير ذلك من المؤثرات التي توحي اليك بها الطبيعة في لغة مفهومة سهلة بعيدة عن ان تكون كناية او مجازاً ، خالية من المحسنات اللفظية ، بعيدة عن الخطابيات التي تستعين بصور البلاغة ، موجزة لا اطناب فيها ، معجزة لا مؤوّل لها

والذين يعجزون عن فهم لغة الطبيعة يظنون ان الانسان خلقٌ وحدهُ وانهُ لا يمت الى الطبيعة بسبب وانهُ سيدها وإنهُ محور الكون وسيد المخلوقات ، الى آخر ما هنالك من مهزلة الخيال الانساني . فاذا فهموا لغة الطبيعة أدركوا ان الانسان احدى هبات الطبيعة لعالم الحياة ، اخرجته بالمشوء من جوفها السحيق انسلالاً على مدى الدهور ، كما ينسل الليل من النهار ، ولكن في فترة مداها ملايين السنين وعلى غير استشعار بما جُبِلَتْ فيه من وراثات وما حبت به جماعاته المتفوقة في الحياة من حظوة الانتصار في معامع التناحر على البقاء ، وبما بُعِثَتْ فيه هذه المعارك المتطاولة من شعور بالحاجة الى التعاون الذي كوَّن هذا المجتمع الانساني ، بما فيه من مختلف الصور ، وبما يحوي من ضروب المعاهد والنظامات

وتوحي اليك لغة الطبيعة بان الارض سيار يدور حول الشمس وانه ثالث السيارات بعداً عنها وان فلكهُ على هذه النسبة من الشمس كان ملائماً لظهور الحياة في صورة حية اخذت تتطوَّر على مدى الايام الطوال فكانت حيوانات رخوة ثم اسماكاً ثم زواحف ثم طيوراً ثم ثدييات برز من خلالها الانسان متربعاً على عرش قسم منها ندعوه الرئيسيات . وان الارض

تمثيل حياة الحيوانات المنقرضة

مشهد في دار فيلد للتاريخ الطبيعي بمدينة شيكاغو يمثل حيوانات الدينوصور من العهد الثلاثي. فالحيوان الكبير في اليمين حيوان آكل للنبات يدعى تراخودون . والحيوان المدرّع في الوسط يدعى بالبوسيكس . والحيوانات الباقية هي من حيوانات ذلك العهد الغريبة الشكل والاطوار . وقد عنى العلماء بتمثيل حياتها في مشاهد ناطقة يؤيد البحث العلمي كل دقيقة منها

كتلة مشتعلة انفصلت من الشمس مذ كانت سديماً بفعل جذب شديد سببه نجم ضال اقترب من ذلك السديم فامتد منهُ ذراع الى خارج فلك ابعد السيارات المعروفة ، ومن ثم اخذ يدور حول اصله في كرات تكاثفت ، فكان منها جابرة من امثال المشتري وزحل ، وانزام من امثال عطارد والزهرة والارض والمريخ

ثم توحي اليك بان القشرة المتجمدة من الارض قد تناوبت عليها ادوار وتناوحت من حولها اعاصير كانت مياه الامطار وثورات البراكين وهزات الزلازل وطغيان المياه انهاراً وبحوراً ، بعض عواملها التي جعلت الارض على ما هي عليه الآن

ثم توحي اليك بان ظهور الاحياء على الأرض وانتشارها فوقها قد خضع لمؤثرات تدعوها مؤثرات الاستيطان وزعت الاحياء على الارض توزيعاً جغرافيًا راجعاً الى حكم الضرورات والمقتضيات التي احتكمت في كل ما برز في الوجود من صور الوجود

وبهذه اللغة السهلة الموجزة تحدثك الطبيعة اذا نظرت الى السماء تستوحي شموسها واقمارها وسياراتها ، او اذا تطلعت الى الارض تستوحي تاريخها العجيب الذي يرجع بك لا الى مدنيات اليونان والرومان ، ولا الى مدنيات مصر وبابل واشور والهند والصين ، بل الى ملايين السنين ، حتى ليخيل اليك وانت تستوحي ذلك التاريخ ، انك تستوحي الابد او اللانهاية

والطبيعة في لغتها لا تتكر عليك الدليل ولا تلجأ الى مغالطتك ببرهان منطقي . بل دليلها في يدها وبرهانها في آثارها . دليل قائم وبرهان ناهض . ولذلك كانت لغتها اسهل اللغات على من يدرك كيف يقرؤها ، واشدها استعصاء على من يجهلها ، وبرهانها قريب لمن يستطيع ان يستخلصه من طياتها ، خفي على من يقف العجز به بعيداً عن استخلاصه

كيف نتعلم لغة الطبيعة

لهذا كان جهل الناس بهذه اللغة السهلة الموجزة ، وعجزهم عن ادراك بلاغتها التي تضاءل بجانبها بلاغة الاوضاع الانسانية ، سبباً في أن يصاب المجتمع الانساني بجمود العقل وانحطاط الروح الى درجة صورنا لك فيما قدمنا من الكلام صورة ضئيلة منها . ولكن كيف يمكن ان تتعلم لغة الطبيعة ، وكيف لمورد الناس على ان يقرؤوها سهلة مذللة ، بعيدة عن مكابرات الجدل والسفسطة ، قصية عن أن تحتكم فيها الاوضاع الانسانية ؟ كيف نقرّب الناس من الطبيعة ، حتى يعرفوا ان الحياة ليست مجرد تكالب على الحطام ، ولا تهالك على الاستجداء ، وان شر ما تبلى به الجماعات رذيلة المجتمع الاجتماعي ، التي خلقها مجتمع بعُد عن الطبيعة وجهل لغتها وعجز عن استقراء اسرارها ، وتعدت به مخايل الوهم الدنيوي عن الافتتان

بلاغتها ؟ لا سبيل الى هذا الا بأن تجمع لهم الطبيعة في دار تدعوها «متحف التاريخ الطبيعي» لتسلسل لهم فيها تاريخ الكون على ما استطاع العلم حتى اليوم ان يدرك من اسراره العتيقة

يأخذ الفنان في يده قطعة من الصلصال لا صورة لها ولا شكل ، ولا انطباق لمكانها على صورة من الصور الهندسية التقليدية ، فيضغطها من ناحية ويبعجها من ناحية اخرى ، ثم يعني في تصويرها رويداً رويداً ، واذا بك ترى امامك تمثالاً رائع الجمال يمثل ناحية من نواحي الحياة او لوناً من الوانها او عاطفة ثائرة او حبًّا كاملاً او املاً او بغضاً او حزناً او تأملاً او غير ذلك من الصور التي تستحيل اليها املاح الاحياء وتعبر عنها تقاسيمهم . ويمسك المصوّر ريشتهُ وامامهُ لوحة بيضاء يخط عليها خطوطاً تحسبها لاول امرها عبث اطفال او تخطيط لامر يقطع الوقت ضجراً من الوقت . ثم لا تلبث ان ترى اللوحة وقد استحالت بريشته منظراً طبيعيًّا اخّاذاً بالالباب او وجهاً تجري فيه الحياة كما تجري في الاحياء ، وقد برز لك من ثنايا الريشة والخضاب ، ليست في نفسك باعثاً بينه ويكوّن امام ناظريك حالة تامة من حالات الحياة دفعة واحدة . وما ان تغالط نفسك او تحملها على الانصراف عن ان تستحيل الى الصورة التي تعبر عنها المصورة ، الا وانت مجاهد في سبيل التخلص من اثر المصور في صورته جهاداً لا تخرج منهُ الا مهزوماً ، ولا تفارقه الا وقد ثبتت في نفسك صورة لا تتغير ، لان نفسك استحالت اليها فدمغتها بطابع لا يزول ولا يتحوّل . ويجنح الشاعر منصرفاً الى تأملاته منحدراً تارة الى حضيض اليأس ، طافياً اخرى الى مسابح الامل ومسارح الحياة الانسانية ، يجمع من هنا فكرة ومن هناك خيالاً ، ويطارد ذكريات تؤلمهُ ليستلهم اخريات ترضيه ، حتى اذا تحركت في كيانه الشاعرية وانسجمت في نفسه المعاني فاستبان السبيل ، تدفق منهُ الشعر عقوداً منظومة وخيالاً مجسماً او طبيعة ناطقة بما تحس النفس الانسانية من مختلف صور الحياة التي تحياها . وعلى هذه الوتيرة يجب ان يجري العالم الطبيعي . فانهُ يجب عليه ان يجمع بين العلم والفنّ والخيال ، ليخرج للناس من الطبيعة صورة تعبر عن الماضي اقوم تعبير ، وليخلق من مجموع العلم والفن والخيال لغة للطبيعة يفهمها العالم ويدرك مناها المتعلم وطالب المعرفة . يجب عليه ان يقيم للطبيعة داراً تحيي بين جدرانها صورة تعبر لنا عن لغة الطبيعة الصامتة ، تلك اللغة التي هي اشبه بلغة الفنان والمصور منوكة في البيان ، في حين انها كلغة الشاعر خفية في المعنى . يجب عليه ان يجمع الاحجار والآثار المستحجرة من اسنان وجماجم واقدام وسلاسل فقارية وفكوك واضلاع واعجاز وزعانف وتروس الى غير ذلك ، ثم يسل في مجموع هذه عصي العلم لا عصى السحر

[يتبعها في باب الاخبار العلمية]